Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وكان لهذا الذى قاله الجاحظ فى تنافر الكلمات تأثير ظاهر على الرمّانى الذى رأيناه يعد « التلاؤم » قسما من الأقسام العشرة للبلاغة كما سبق أن ذكرنا ، فهذا التلاؤم ليس إلا الوجه الإيجابى للتنافر الذى تحدث عنه الجاحظ ، وقد استشهد الرمانى للأمرين المتناقضين — التلاؤم والتنافر — ببعض النماذج الشعرية التى استشهد بها الجاحظ . واعتقد أنه لا يخفى على القارىء بعد ذلك أن ما نقرأه فى كتب البلاغيين المتأخرين ، وعند عبدالقاهر[١٢٣] قبلهم من حديث عن هذا الموضوع إنما مصدره الجاحظ .

ولعل من أهم أصول التفكير البلاغى التى تضمنها كتاب « البيان والتبيين » تلك الفكرة التى صارت فيما بعد حجر الزاوية فى مفهوم البلاغة عند البلاغيين المتأخرين ، وحولها دارت مباحث علم من علومها الثلاثة حسب تقسيماتهم ، وهو ما يسمى « علم المعانى » ؛ ونعنى بها فكرة « مطابقة الكلام لمقتضى الحال » . والحق أن هذه الفكرة ليست خالصة النسب للجاحظ ، وفضله فيها يرجع إلى أنه — فيما نعلم — كان أول من سجلها فى كتاب ، فعرفها الناس عن طريقه ، أما صاحبها فهو واحد من أقطاب المعتزلة وألمع شعرائها وخطبائها ، بشر ابن المعتمر الذى عاصر أبا عبيدة معمر بن المثنى ، ومات فى نفس العام الذى مات فيه وهو عام ٢١٠ هجرية ، وخلف وراءه أثرا نقديا بالغ الأهمية هو صحيفته التى نقل الجاحظ نصها ، وأشار إلى أن بشرا ألقى بها إلى مجموعة من فتيان المعتزلة حينما مر عليهم وهم بمجلس يتعلمون فيه أصول فن الخطابة . والذى يعنينا من توجيهات بشر وإرشاداته الفنية فى تلك الصحيفة دعوته إلى المواءمة بين الكلام والمقام ، فهذه هى بذرة فكرة « المطابقة » التى أشرنا إليها . ونحن نرى هذه الدعوة فى موضعين ؛ أحدهما يتحدث فيه عن شرف المعنى ، فيذهب إلى أن هذا الشرف لا يرتبط بكون المعنى من معانى الخاصة ، وبالمثل لا يكون وضيعا إذا كان من معانى العامة ، « وإنما مدار الشرف — كما يقول — على الصواب وإحراز المنفعة مع موافقة الحال ، وما يجب لكل مقام من المقال »[١٢٤] . الموضع الثانى يتحدث

---

(١٢٣) انظر دلائل الاعجاز ص ٥٧ .

(١٢٤) البيان والتبيين ج ١ ص ١٣٦ .